قصة أخوات

اسراء عماد العزوني

تدقيق: أحمد عصام

أخوات

كانت تجول بين الأبنية المدمرة تحت أشعة الشمس الحارقة، وصوت الزنانات يقطع الصمت المهيب بين الركام، فتاة في مقتبل العمر تسير وحدها قاطعة أميال بحثًا عن ما يسد رمق جوعها، لم تعد تعرف ملامح هذه المدينة، أين هي ولأين وصلت، فالدمار يحول دون معرفة المكان، أخذت تجر معها كيسًا كبيرًا لعلها تجد ما يساعدها على العيش لتحمله معها، راحت تتخطى الكثير من الحطام فلم يعد للشارع وجود بهذا المكان، وعليها أن تصعد تلة الركام هذه لترى إلى أين ستذهب بعدها.

الخوف يقبع في جزء بعيد من حجرات قلبها، والجثث المتناثرة في كل مكان، وأشلاء الأطفال تنظر إليها، لقد تحطمت وفقدت كل أثر للحياة، أو للخوف بعد ما أصابها، صعدت التلة ونظرت إلى الأسفل ها هو البحر، إنه بحر غزة الذي ولطالما جمعها بأحبائها، لقد كانت تلهو وتلعب هنا هي وأختيها منذ بضعة أشهر، بدأت ترى ملامح المكان؛ نعم، فهنا كان واحدًا من أفضل مطاعم غزة المشهور بطعمه الفريد والمميز، هنا احتفلت بعيد ميلادها العشرون مع والديها وأختيها، لقد تبدلت سكنات المكان كثيرًا، واستحال اللون الرمادي على كل شيء عدا من انعكاس صورة السماء على سطح البحر، لقد مات كل شيء في مدينتها ولم تمت الحياة، لكنها لا تستطيع أن تتجاوب مع هذا، لا تملك القدرة على التعايش بعد أن فقدت كل من لها في هذه الحياة.

نزلت من على التلة متجهة إلى الشاطئ لتجلس هناك على رماله الذهبية الرطبة، وتشاهد غروب الشمس الصافي بعد أيامٍ من متابعة الدخان؛ جال في ذاكرتها آخر يوم قبل الحرب كانت قد أتت إلى هنا مع أختيها وتناولن المثلجات أثناء مشاهدة الغروب، كانت أختها الوسطى والتي تصغرها بعامين فقط تتحدث عن أحلامها.

يا له من جمال مهيب!، أتعلمن، أنا أرغب بأن أصبح رسامة، سألتحق بكلية الفنون الجميلة، وأول مشهد سأرسمه هو هذا الغروب.
لتتحدث الصغرى وترد عليها: وما هو المميز في رسم الغروب؟ فالكثير من الرسامين والفنانين سبقوك في هذا؛ لكن لم يسبقني أحد في رؤيته كما أراه، إن غروب مدينتنا ليس كأي غروب، على الأقل بالنسبة لي.

كانت أختها ترى كل شيء بعيني فنان، لكن لم تكن رسمتها الأولى عن الغروب، فبعد أيامٍ من الحرب رسمت أول رسمة لها، والتي كانت تتضمن منزلهم المدمر، رسمته بكل وجعٍ وحسرة.

نزحوا بعد تدمير المنزل، وكان عزائهم الوحيد أنهم نجوا من هذا القصف، توجهوا إلى الجنوب للمنطقة الآمنة في خانيونس، التحقوا بعدها بإحدى مراكز الإيواء في المدارس، تابعوا حياتهم مع أحزانهم والبسمة على محياهم رغم الخوف والألم والجوع رغم الشتات، كانوا يتقاسمون مهام العيش بكل رحابة صدر، بين إحضار للماء وجلب للطعام وغسل للملابس وغيرها من المهام الشاقة التي تستحوذ على الكثير من الوقت، وهي التي لا تأخذ شيئًا في العادي، لتأتيهم قصمة الظهر والغدر من الجيش الذي عُرف بغدره وبطشُه، الجيش الذي لا يَعرف معنى للرحمة أو الإنسانية، فتدخل قوات الاحتلال إلى المدرسة تفتك بالكبير والصغير، ولا تترك شيئًا، أحرقوا الأغراض، وجرفوا المباني، لم ينج والديهم في ذلك اليوم؛ لقد قُتلا غدرًا ممن غدروا الأنبياء، نجت وأختيها بأعجوبة مع بعض الناجين بعد خروج اليهود من المدرسة إثر ما خلفوا فيها من دمار.

لقد شاهدن مقتل والديهم أمام أعينهن، الآن ما بات للأمان مكان بيننا ولا للفرح، كانت أختها الصغرى والتي تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ترتجف من هول ما رأت، لقد خط الفزع خطوطه على وجهها، وكانت الوسطى صامتة لا تتحدث، أو تبكي، أو تفعل شيء، أخذت تهدأ من روع أختيها رغم بكائها الذي يحرق خديها ويحيل عينيها رمادًا بعد تلك النار، لم يزر النوم أعينهن تلك الليلة، وها قد أشرقت شمس يومٍ جديد.

كانت تتذكر تلك الحسرة التي عاشتها برفقة أختيها، كن يهدأن من روع بعضهن البعض، ويمسحن دموع بعض، لم يزرهن الفرح بعد هذا الحادث، لكنهن أبين ألا يستسلمن للواقع المرير؛ بحثن عن مأوى ليبتن فيه بعد أسبوع أقمن فيه بين الركام، وها قد وجدن خيمة صغيرة تستر أجسادهن عن عراء العالم، كن يبكين معًا، ويأكلن معًا، ويبحثن عما يعينهن على العيش معاً، اقتسمن مشاق الحياة وأوجاعها.

هذا الشعور يخنقها يكبل قلبها بأسياخ من حديد، تذكرها لإخوتها وكيف كن يخففن من آلام بعض، أخذت تقلب في جوالها، والذي احتفظت به رغم ما تتكبده من صعاب للحصول على لقمة للعيش، فقد كان بإمكانها بيعه إن قبل شراءه أحد لتشتري الطعام، لكنه يحوي صورهم جميعًا، هي وأختيها ووالديها، لن تفرط في آخر ما تبقى لها منهم، لن تفرط في الذكريات.

تذكرت كيف اغتال قناص من الاحتلال أختها وهي تحضر بعض الماء، وكيف ظلوا أيامًا لا يستطيعون الاقتراب من جثتها لدفنها، وكيف واسَت أختها الوسطى، وكيف واسَتْها أختها، كيف أصبحْن ينمن كُل ليلة محتضنات بعضهن البعض، وكنّ يخشين الفراق لثانية، أصبحن يفعلن كل شيء معًا، وأصبح كل شيء أصعب وأقسى، ها هي مشارف رمضان تهل، والحرب لا تزال مستمرة، والجوع والألم لا يزالان يلاحقان كل شبرٍ في هذه

الأرض، لم يقبع الألم في قلوبهن فحسب؛ بل دق كل باب واقتحم كل شخص.

حل الظلام وهي لا تزال جالسة عند الشاطئ، أخذها التفكير والشرود ونسيت أن عليها المغادرة قبل الظلام لتتمكن من رؤية طريقها لخيم النازحين في دير البلح، والتي نزحت إليها مرة أخرى بعد أن فقدت أختها الوسطى في قصفٍ همجي أصاب خيمتهم في رفح، نجت منه بإصابةٍ طفيفةٍ في الظهر، وبضع شظايا في ذراعها اليسرى، لكنها فقدت أخر من كان لها، فقدت روحها وعمرها، واحتل الشيب محله في خصلات شعرها الأسود كسواد الفلق.
بدأت تتحسس طريقها للخيم، وقد ساعدها صفاء السماء في هذه الليلة واكتمال القمر، عادت بعد جهد جهيد إلى خيمتها وإذا بإحدى جاراتها في المخيم والتي تعرفت إليها مؤخرًا كانت في انتظارها.
: لقد كنت قلقةً عليكِ أين كنتِ؟
: عند البحر.
: هل تناولتي الطعام؟
: لا.
: لقد وصلتنا اليوم بعض المساعدات، وقد احتفظت إليكِ بحصة من الطعام، فأنا أعلم أنكِ لم تتناولي شيئًا منذ أيام.
: شكرًا لكِ.
: العفو فنحن أخوات.
: نعم أخوات.

تمت